العرب
الخميس 2020/03/05
السنة 42 العدد 11637

ممثل يقود مُخرجاً وأبطال مهووسون بالقتل

«امرأة في الظل» فيلم مغربي يكشف كيف تكتب السينما أقدارنا

رفع المخرج المغربي جمال بلمجدوب من إيقاع السباق نحو الفوز بالجوائز الكبرى للمهرجان الوطني للفيلم بمدينة طنجة، وهو يقدم عمله الجديد "امرأة في الظل"، مثلما رفع من سقف اشتغاله السينمائي، قياسا إلى أعماله السابقة، مثل "ياقوت" و"الحلم المغربي" وأعماله التلفزيونية الأخرى.

ناديا كوندا.. فنانة أدت دور البطولة باقتدار

مخلص الصغير
كاتب مغربي

فيلم "امرأة في الظل" للمخرج المغربي جمال بلمجدوب توليفة بين نسخة مغربية جديدة من أفلام الإثارة والتشويق، وقصص الجريمة والتحقيق، وبين نسخة معدلة من سينما المؤلف، تراهن على السيناريو، بينما تعيد كتابة الأحداث بواسطة المشاهد والصور.

يبدأ الفيلم في ملجأ خيري، حيث تلتقي سارة، وهي ابنة رجل ثري، بسعيد، الذي عاش في هذا الملجأ الخاص بالأطفال المتخلى عنهم، إلى أن حصل على شهادات عليا، وإلى أن صار كاتبا، مثلما مر بتجربة زواج فاشل، على غرار سارة تماما.

إذا كانت السينما خيالا متوقعا فإن ما أراده الكاتب بطل الفيلم هو محاولة جعل ما يتخيله واقعا

في ساحة الملجأ تعانق سارة طفلا صغيرا لم يتجاوز السنتين، قبل أن تلتقي بسعيد، ليدخلا في عناق طويل قادهما إلى الزواج. وقد عاشا معا في فيلا فاخرة على ملك والدها.

مشكلة سارة أنها تعاني من مرض "الجاثوم"، وهو مرض نفسي يدفع المريض إلى النهوض من فراشه ليلا والتجول في البيت، وربما مغادرته، والقيام بأشياء كثيرة، دون أن يعي ذلك. كما تعيش سارة لحظات من الخوف، حتى في قلب النهار، لمجرد سماع حركة في البيت، أو لأي سبب كان. وهذا ما تمهد له موسيقى تصويرية معبرة ألفها يحيى بادوي ببلاغة لحنية قوية، مع تشكيل فني للإضاءة في هذا الفيلم. فمرة، تستيقظ سارة وتتصل بأمها وتخبرها أن زوجها يريد قتلها، ثم تعود إلى النوم، من غير أن تتذكر بأنها قامت بالاتصال.

وحين يأتي الأب والأم يكتشفان أن ابنتهما لا تزال تعاني ذلك المرض النفسي. وفي ليلة أخرى، تستيقظ سارة من نومها دون أن تستيقظ تماما، ويخيل إليها أنها تقتل زوجها، ثم تتصل بالشرطة، وتخبرهم بأنها قتلته. ثم حين يحل رجال الشرطة بالبيت يكتشفون أنها واقعة تحت تأثير المرض النفسي. في مقابل ذلك، يبدو زوجها سعيد هادئا، وهو يشتغل روائيا وكاتب سيناريو، تُترجَم روايته إلى لغات أجنبية، بينما يواصل نجاحاته الأدبية. وقد أغرته حالة زوجته سارة بكتابة سيناريو عنها، فشرع يدون على جهاز "الماك" فصولا من مشروع سينمائي يعيش تفاصيله في بيته، ومع زوجته بشكل يومي.

سيناريو قاتل

مرة أخرى، اقتنت سارة وشاحا لها وآخر مثله تماما لقريبتها التي تجمعها بها صداقة متينة. وقد حرصت صديقتها على ارتداء الوشاح حين كانت تزورها، تقديرا لهديتها الرمزية. ذات مرة، دخلت سارة إلى غرفة نومها، وأطلت تحت السرير فوجدت الوشاح، وصارت تتوهم وجود علاقة خيانة بين قريبتها وزوجها، ناسية أنها اقتنت لنفسها أولا وشاحا هو الذي عثرت عليه تحت السرير.

كل هذه الأحداث كان الزوج سعيد يدونها ويحرر بها نص السيناريو الجديد، لكنه صار يختلق ويتخيل مسارات للشخصيات ومجريات للأحداث، فتوهم بأن سارة سوف تقتل قريبتها، وأن هذه السيدة لا بد أن تموت، فقام بقتلها فعلا، ودفنها في حديقة البيت. وقد أراد سعيد أن يوهم الشرطة بأن زوجته هي التي قتلت، وفقا للسيناريو الذي يكتبه. كما قرر أن يقتل الزوج سارة في السيناريو، وفقا لمخطط السيناريو، دائما، فما كان له إلا أن أقدم على محاولة قتلها حقيقة، لكن رجال الشرطة كانوا قد حضروا إلى البيت، واكتشفوا جريمته، وجنونه الذي جعله يحاول تحقيق السيناريو وتطبيقه على أرض الواقع.

وكان سعيد منذ تعرف على سارة في مسبح الفيلا، قد حاول خنقها، قبل أن يخبرها بأنه كان يمزح معها ليس إلا. بينما عبر المشهد بمجاز سينمائي منسرح عن رغبة القتل تلك.

إذا كانت السينما خيالا متوقعا، حسب ستانلي كوبرك، فإن ما أراده بطل الفيلم، بوصفه مؤلفا روائيا وكاتب سيناريو، هو محاولة جعل ما يتخيله واقعا، لكن الأمر يصير غريبا فعلا، على نحو ما تقوله العبارة الشهيرة "أغرب من الخيال". هذه العبارة المتداولة هي عنوان لفيلم أميركي أخرجه مارك فوستر سنة 2006، وهو يحكي قصة شخص يكتشف أن كل ما يحدث له يوجد في الأحداث الواردة في روايات كاتبة اسمها آنا باسكال.

وحين قرأ صاحبنا أعمال هذه الكاتبة اكتشف أن كل أبطالها يموتون في نهاية الرواية. لجأ المسكين إلى الكاتبة وطلب منها أن تغير من النهاية رأفة به، ففعلت، لكنها حين عرضت روايتها على صديق ناقد يقرأ أعمالها قبل أن تنشر، أخبرها أنه لا بد للشخصية الرئيسية أن تموت في النهاية، وإلا فإننا سنكون أمام رواية لا معنى لها، على حد تقييمه. كذلك، فقد تحمس سعيد لنص السيناريو، في هذا الفيلم المغربي، إلى درجة الجنون، فقتل الضحية الأولى، ثم أراد البحث عن نهاية قوية لروايته، تتمثل في قتل زوجته.

امرأة في الظل

يُسأل المخرجون عن كل تفاصيل الفيلم، ومن ذلك مسألة إدارة الممثل. ومع جمال بلمجدوب، في هذه التجربة الفريدة، أمكن الحديث عن إدارة المخرج. لقد اختار بلمجدوب ممثلة قوية لدور البطولة هي نادية كوندا، التي توجت قبل سنتين بجائزة المهرجان الوطني للفيلم المغربي وبجائزة أحسن ممثلة في مهرجان الجونة السينمائي في مصر.

كما اختار ممثلا محترفا هو يونس بواب، الذي حصل على جوائز مماثلة. هنا، وأمام براعته، وبراعة نادية كوندا، صار الممثل هو الذي يقود المخرج، ويمنحه فرصة لتقديم عمل ممهور بعناية، حيث ينحت الممثل دوره، بل يساهم في رسم باقي عناصر الفيلم ومكوناته.

هذا فضلا عن استعانة المخرج بكاتب سيناريو متمرس هو الكاتب جلال بلوادي، مع أن المخرج نفسه هو أستاذ لمادة السيناريو. وهنا نكون أمام "فيلم السيناريو" إن صح التعبير، حيث يتدخل في كتابة السيناريو ثلاثة متخصصين، أولهم كاتب سيناريو الفيلم جلال بلوادي، والثاني هو المخرج وأستاذ السيناريو جمال بلمجدوب، والثالث هو بطل الفيلم، الذي يؤدي دور كاتب سيناريو أراد لنصه أن يتحقق على أرض الواقع، فصار يسعى إلى قتل من يريد، متخيلا أن الواقع من حوله ما هو إلا فيلم سينمائي، وأن الناس المحيطين به ما هم إلا ممثلون يؤدون أدوار شخصيات روائية وسينمائية متخيلة.

ألم يقل جون بودغيار إننا تحولنا في هذا العالم الاستهلاكي والافتراضي إلى مجرد ممثلين ضمن ما يسميه "مجتمع الفرجة"، وأننا لا نعيش هذه الحياة حقيقة، بل نكاد نؤدي فيها أدوارا فقط، كتبها لنا من يصنعون هذا الواقع ويرسمون مساراته حسب أهوائهم ومصالحهم الكبرى.

يمكن القول إن جمال بلمجدوب قد اشتغل على كل العناصر الفيلمية، لكنه ربما أهمل عنوان الفيلم، حين اقترح عنوانا دارجا ومستهلكا هو "امرأة في الظل"، وهو عنوان لروايات ودواوين شعرية عربية ومغربية، آخرها رواية للكاتب المغربي عبدالجليل الوزاني.

كما نستحضر ههنا فيلما بالعنوان نفسه للمخرج رالف فينس، يحكي أسرارا من حياة الكاتب الإنجليزي تشارز ديكنز، وعلاقته الملتبسة بالممثلة الشهيرة إيلين تيرنان، المعروفة بنيلي تيرنان. حيث يلمح الفيلم إلى حقائق أدبية تؤكد تمثل ديكنز لمعشوقته في العديد من الشخصيات التي رسمها في رواياته المعروفة، أمثال "قصة مدينتين" و"أوليفر تويست" و"دايفد كويرفيلد"...

في نهاية الفيلم المغربي، تستقبل بطلة الفيلم سارة ذلك الطفل الصغير في بيتها، والذي عانقته في ملجأ الأطفال المتخلى عنهم، قبل أن تلتقي بسعيد. وهو الطفل الذي تمنت سارة أن تتبناه وترتضيه ابنا لها. لكن، هل كان من الضروري أن يكون الزوج سعيد "القاتل" قادما من الملجأ بالضرورة؟ لعل هذا من بين ما يحدث للمخرج حين ينشغل بالصورة.

صورة المرأة في السينما العربية.. نسخة من الواقع

سعد القرش
روائي مصري

لم تسهم مهرجانات السينما العربية التي حملت عنوان «أفلام المرأة» في تمتّع النساء بأدوار أكبر في صناعة السينما. هذه الأدوار الكبرى تفوق بالطبع ما تتيحه للمرأة مواهبها في التمثيل والإخراج، وتتعدى ذلك إلى القدرة على تغيير خارطة الإنتاج، باتخاذ ما يشبه صناعة القرار السياسي في مستويات إدارة الدول.

ولا تزال المخرجة في الكثير من الدول العربية تشكو تعثر مشاريع أفلامها؛ بسبب تعنّت شركات الإنتاج، كما تظل الممثلات أقل حظا من الرجال في نيل فرص البطولة؛ لتردد المنتجين وخوفهم من المغامرة بأموالهم، لأن رأس المال جبان يرفض أن تكون النساء في هذا المجال شقائق الرجال. باختصار يمكن القول إن صورة المرأة في الأفلام العربية تكاد تطابق أدوارها الواقعية في بلادها.

كتاب «صورة المرأة في السينما العربية.. حصاد 2019»، الصادر بالعربية والمصحوب بترجمة إنجليزية عن مهرجان أسوان الدولي لأفلام المرأة في دورته الرابعة (10 ـ 15 فبراير 2020)، يؤكد تراجع مكان ومكانة النساء في صناعة السينما في معظم الدول العربية. ويثبت الكتاب أن السينما لا تختلف كثيرا عن الثورة، يغامر بها الشجعان، ثم يستفيد بثمارها الجبناء، بعد اطمئنانهم إلى فائدة السينما كمشروع استثماري. ومسيرة السينما المصرية دليل على هذه المعادلة الظالمة، ففي عام 1927 خاضت المرأة المصرية مجال السينما، في التمثيل والإخراج والتأليف والإنتاج، مع فيلم «ليلى» لعزيزة أمير التي قدمت أيضا عام 1929 فيلم «بنت النيل». وكانت فاطمة رشدي مؤلفة وبطلة ومخرجة فيلم «الزواج» عام 1932. ومع تأسيس ستوديو مصر عام 1935، كذراع فنية لمؤسسة اقتصادية كبرى، هيمن الرجال على إنتاج السينما المصرية إلى اليوم.

شارك نقاد وناقدات في هذا الكتاب البانورامي، الذي يغطي أحوال السينما عام 2019 في معظم الأقطار العربية، ونظرا لتشابه المشكلات والعقبات الإنتاجية سأكتفي بمثالين من أقصى شرقي العالم العربي إلى أقصى الغرب، وعبر هذين القوسين يمكن قراءة ملامح مختلفة في إنتاج فن عابر للثقافات والحدود.

كتب الناقد الكويتي عبدالستار ناجي أن السينما الكويتية تحظى بدعم رسمي، مباشر وغير مباشر، وأنتجت ستة أفلام روائية طويلة، و18 فيلما روائيا قصيرا، و12 فيلما وثائقيا، ولكن حضور المرأة في الأفلام الروائية اقتصر على التمثيل. وقد دعمت الشيخة انتصار سالم العلي الصباح إنتاج أربعة أفلام، وأنتجت الفيلم الروائي الطويل «سرب الحمام» الذي يتناول جانبا من المقاومة الكويتية أثناء تحرير الكويت عام 1991. في الفيلم شخصية نسائية واحدة هي فاطمة، ولكن الفيلم «ضل الطريق إلى إثراء تلك الشخصية... وظلت شخصية المرأة بعيدة عن ذلك الصراع دونما تعمق أو دور يمكن أن يؤسس لقيمة ودور ونضال ومشاركة كبرى ترسخ حضور المرأة في تلك الفترة، وذلك الأمر المصيري الأهم في تاريخ الكويت الحديثة».

لم يقل الكاتب إن تلك اللحظة التاريخية كانت فرصة ذهبية لتقديم وجوه من مقاومة وطنية تتحقق فيها الندية والمساواة بين الرجال والنساء، بحكم الظرف الاستثنائي، ولكن قصور الخيال أضاع تلك اللحظة، ربما بحكم ميراث من التهميش والإقصاء للنساء عن حضور فاعل في ما يراه الرجال من اختصاصهم.

يخلص الناقد إلى أن الإنتاج السينمائي الكويتي ينظر إلى الأفلام كمشروع تجاري، ويفضل المعالجات الكوميدية الخفيفة، ويتجنب قضايا المرأة في المجتمع الكويتي، «مما يشكل هوة واسعة بين السينما وقضايا المجتمع بشكل عام... الحضور يظل يعتمد على دائرة مكررة ومستعادة وهامشية بعيدا عن مكانة المرأة ودورها الحقيقي في المجتمع الكويتي».

سهولة الحصول على تمويل أو دعم للإنتاج، ووفرة عدد الشاشات التي تملك الكويت منها 71 دارا للعرض، ليستا شرطا لضمان الجودة الكيفية، وانخراط النساء في المهن السينمائية، فالرهان قبل التمويل وفرص عرض الأفلام جماهيريا يكون على الوعي، استنادا إلى تراث فني وفكري حاكم لصناعة السينما، كما هو الحال في المغرب الذي تقلص فيه عدد القاعات السينمائية «بشكل مهول في السنوات الأخيرة» إلى أقل بكثير من عدد دور العرض في الكويت.

أنتج المغرب عام 2019 نحو 25 فيلما روائيا طويلا و60 فيلما قصيرا. ويرصد اشويكة الدور الأكثر بروزا للمرأة في السينما المغربية، في كتابة السيناريو والتمثيل والمونتاج والإخراج. ففي الإخراج حققت أربع نساء حضورا بارزا في مهرجانات كبرى بأفلام روائية طويلة هي: «أنديكو» لسلمى بركاش، و«نبض الأبطال» لهند بن صاري، و«صوفيا» لمريم بنمبارك، و«آدم» لمريم التوزاني.

أما حضور المغربيات في التمثيل فيزداد قوة، وفي كل الأفلام أدوار حيوية للنساء، بل إن «هناك بطولات مطلقة للمرأة الممثلة» في أفلام أخرجها الرجال. ولا تختلف صورة المرأة المغربية في الأفلام عن حقيقتها في المجتمع، ولا يخلو الأمر من نموذج لامرأة «تقاوم نفوذ الرجل الذي لا يراها إلا متعة من متاع الدنيا»، مثل فيلم «هلا مدريد.. فيسكا بارصا» لعبدالإله الجوهري. وهناك أيضا المرأة «المنتصرة لنبل الصداقة والتعايش رغم الاختلاف الديني»، كما في فيلم «الميمات الثلاث.. قصة ناقصة» لسعد شرايبي.

المرأة في السينما المغربية تلغي هيمنة الرجال (فيلم «صوفيا» لمريم بنمبارك)

الكتاب بانوراما شارك فيها نقاد وناقدات يرصدون أحوال السينما سنة 2019 في الأقطار العربية نظرا لتشابه المشكلات

في عام 2019 كان عدد المخرجات في المغرب 39 مقابل 55 مخرجا، وهناك 28 مديرة إنتاج مقابل 67 مدير إنتاج. وتترأس الإعلامية فاطمة الوكيلي لجنة دعم إنتاج الأفلام التي تضم في عضويتها سبع نساء مقابل أربعة رجال، وتضم لجنة دعم المهرجانات والأنشطة السينمائية أربع نساء وخمسة رجال. وكان الحصاد على مستوى الطموح، بأن «فرضت المرأة المغربية نفسها وطنيا وإقليميا وعالميا»، وأسهمت في انتعاشة مهمة في الإخراج حول العالم في عام 2019، وبلغت أفلام النساء حسب وكالة بلومبرغ 11 في المئة ضمن أهم 100 فيلم في عام 2019.

بهذه المفارقة يسهل الرهان على صحوة مغربية في عالم السينما، نور يشرق من أقصى غربي العالم العربي.